الفصل الأول

النّيل شريان الحياة

النيل شريان مصر الخالد :

النيل هو أطول أنهار العالم جميعاً ؛ إذ يبلغ طوله من منابع نهر «كاجيرا» أبعد روافده فى الجنوب حتى مصبه فى البحر المتوسط نحو (٦٥٠٠ كيلو متر) ويحافظ فى هذه المسافة الطويلة على اتجاهه نحو الشمال – ويندر أن نجد نهراً يفعل ما يفعله النيل فى التزامه اتجاهاً ثابتاً فى الجريان لمثل هذه المسافة – حتى أننا نجد مخرجه من بحيرة فيكتوريا ومصبه عند دمياط على خط طول واحد تقريباً .

وتبلغ مساحة حوض النيل نحو (٢,٩ مليون كيلو متر مربع) وهو بذلك ثالث أحواض العالم النهرية مساحة فلا يسبقه سوى حوض نهر الأمزون - وحوض الكونغو .

ويدخل النيل أراضى جمهورية مصر العربية عند خط عرض ٢٢ درجة شمالاً ويبلغ طول الجزء المصرى منه (نحو ١٥٠٠ كيلو متر) – ويجرى النهر فوق منطقة من الخرسانة النوبى لمسافة (٤٠٠ كيلو متر تقريباً) – حتى يختفى الخرسان النوبى تحت صخور أحدث منها فى صخور إسنا .

وجوانب النهر فى هذه الجزر . تتعاقب بها المدرجات التى لا ترتفع كثيراً عن مستوى النهر وهناك بعض الأشرطة الضعيفة من الأراضى الزراعية وفى شمال أسوان يبدأ النهر فى تكوين سَهْله الرسوبى الخصيب ويكون الوادى ضيقاً ثم

يتسع فجأة عند كوم أمبو حيث يوجد سهل ملأته الرواسب التى حملتها الأودية القديمة من الصحراء الشرقية .

وعند إسنا تتغير التكوينات الجيولوجية – كما سبق أن أشرنا – ويحل الجير محل الحرسان النوبى – ويستخرج الفوسفات من هذه التكوينات سواء فى منطقة إسنا أو بين القصير وسفاجة ومن بعد هذه الصخور تبدأ التكوينات الأيوسينية بالقرب من أرمنت فلا تزال تحف بوادى النيل حتى القاهرة .

وفى شرق القاهرة تكون طبقات الأيوسين هذه مُحَدَّباً قِمَّته عند القلعة ونهايته سطحية عند المعادى جنوباً ومصر الجديدة شمالاً .

وهذا هو جبل المقطم الذى يتكون من طبقتين من الحجر الجيرى : السفلى بيضاء والعليا مائلة للاصفرار أما فى الغرب فتوجد كتلة غير متجانسة البناء الجيولوجى وهذه هى كتلة أبى رواش .

ويبلغ متوسط اتساع الوادى فيما بين أسوان والقاهرة (نحو ١٠كيلومترات) ويبلغ متوسط عَرْض النهر نفسه (نحو ٧٠٠ متر) . ويكاد يلزم النهر الجهة الشرقية من واديه ولا يتحول إلى الجهة الغربية إلا قليلاً . ولكن هذه الظاهرة ليست واضحة فى منطقة قنا إذ يغير النهر اتجاهه المعتاد ولكنها تظهر بوضوح إلى الشمال من نجع حمادى وبخاصة فيما تحت منفلوط .

ويبدأ السهل الرسوبى ضيقاً عند أسوان ثم يتسع فى سهل كوم أمبو ولكنه يعود فيضيق حتى لا يفصل الصحراء عن مياه النهر فاصل كبير .

وعند أدفو يتسع السهل مرة أخرى ولا يزال يتسع بالتدريج حتى قنا وهنا تقترب حافة الهضبة الليبية من النهر الذى يغير اتجاهه فيجرى إلى الغرب مع ميل إلى الجنوب – ثم يعود من بعد نجع حمادى إلى اتجاهه العام وَيَتَّسع السهلُ

الرسوبى فيصبح متوسط عرضه (نحو ١٥ كيلو متراً) – وإن يكن يقل فى بعض الجهات عن ذلك كما هو الحال فى المنطقة بين الصف وحلوان حيث يتراوح عرض الوادى بين ١٠,٥ كيلومترات .

وينحدر إلى النيل وهو يشق طريقه فى أراضى مصر عدداً من الأودية الجافة على جانبه الأيمن – ولاشك أنها كانت تجرى بالماء فى زمن قديم وإلا لما تكونت .

ومن هذه الأودية «وادى العلاقى» أكبر أودية صحراء مصر الشرقية ومنابعه العليا فى داخل حدود السودان – وينتهى إلى النيل شمالاً «ثنية كروسكو» ووادى خريط ويتصل بالنيل عند حوض كوم أمبو ووادى الحمامات – ويمتد من نواحى القصير إلى الغرب وينتهى إلى النيل عند ثَنِيَّة قنا .

وكان هذا الوادى قديماً من أهم الطرق التى تربط النيل بالبحر الأحمر ثم وادى قنا الذى يمتد من الشمال إلى الجنوب ويفصل بين إقليمين يختلفان فى البناء الجيولوجى وفى المظهر العام .

فالقسم الشرقى يتكون من صخور نارية فى حين يتكون القسم الغربى من صخور جيرية أقل ارتفاعاً من صخور الشرق – وفى منطقة القاهرة يتصل بالنيل وادى حوف عند حلوان ووادى دجلة عند المعادى .

أما على الجانب الأيسر للنيل فلا توجد أودية واضحة كأودية الشرق وإنما يوجد منخفض من منخفضات الصحراء الشرقية يلحق بأرض الوادى وهو منخفض الفيوم الذى تربطه بالوادى فتحة اللاهون ويجرى فيها بحر يوسف وهو فرع للنيل القديم .

وتنخفض أرض الفيوم تدريجياً على شكل مدرجات كبيرة حتى تنتهى إلى «بحيرة قارون» وتقع على مستوى ٤٥ متراً تحت سطح البحر.

وعلى بعد نحو ٢٠ كيلومتراً إلى الشمال الغربى من القاهرة تبدأ دلتا النيل التى يجرى فيها الآن فرعان هما فرع دمياط فى الشرق وطوله ٢٤٥ كيلومتراً. وفرع رشيد فى الغرب وطوله ٢٣٦ كيلومتراً ولم تكن الدلتا دائماً كذلك وإنما كانت كدالات الأنهار جميعاً فى بداية أمرها أرضاً كثيرة المنافع لم تمتد فيها مجارى الماء ولم يتخذ فيها النهر طريقاً أو طرقاً ثابتة إلى البحر بل كان دائم التردد بين مجرى وآخر - وكانت الرواسب التى يحملها تسد أحد المجارى فيتحول الماء إلى منخفض جديد يجرى فيه.

ويكاد يجمع الكتّاب على أن الدلتا فى العصور التاريخية كان يشغلها سبعة أفرع للنيل لم يبق منها سوى الفرعين اللذين تراهما الآن.

النيل صانع الحياة المصرية :

النيل هو صانع الحياة على أرض مصر الخالدة صنعها منذ أن عرف طريقه إلى البحر المتوسط فى نهاية العصر الحجرى القديم - ومنذ أن أخذ يجلب الغرين فى كل عام يكسو به أديم الأرض فيكسبها الخصب ويدب فيها العيش.

وإذا كانت العبارة المأثورة (مصر هبة النيل) تتردد على الألسنة عن «هيرودوت» فقد سبقه إليها (هيكاتيوس الْمَلطى) وسبقها المصرى القديم نفسه فتغنى فى صلواته وتراتيله إلى ذلك الإله العظيم الخيِّر الذى يأتى فى كل عام ليفيض على الأرض بمياهه ثم ينحسر ليَهُبَّ المصرى إليها يحرثها ويبذر الحب فتبدأ الحياة بين أفراح القوم وابتهالاتهم.

عرف الإنسان الأول طريقه إلى وادى النيل عندما قل المطر فى شمال أفريقيا وتحولت المراعى الخصبة إلى صحارى جرداء – وفى وادى النيل تحولت حياة الإنسان من التجوال إلى الاستقرار وتعلم الزراعة التى دفعته إلى التعاون مع من حوله من الناس. واتجه المصرى القديم إلى النيل نبع الحياة فاتخذ من أعواد نباته مسكناً له ومن طينه كساء لهذا المسكن ثم تعلم كيف يصنع الطوب ليبنى مساكن أكثر ملاءمة لأغراضه ، ومن ضفى النيل صنع المصرى أوانيه الفخارية ومن سمكه تغذى ومن نباته صنع الفلك وتنقل به على صفحته من مكان لآخر .

أى أن النيل كان منذ أقدم العصور محور كل شىء فى الحياة وفى حياة ذلك الإنسان الذى أتى واستقر فى وادى النيل الأسفل .

ولاشك أن هذا الإنسان قد أدرك منذ البداية الدور الكبير الذى يلعبه هذا النهر فى حياته ولا غرابة إذا ما رأينا المصرى القديم يقدس النيل ويجعل منه إلهاً يجلب الخير ويحيى الأرض الموات .

واعتقد المصرى القديم أن النيل محور العالم ومن حيث أتى النيل كانت بداية هذا العالم ولذلك اتجه المصرى القديم إلى الجنوب – منبع الحياة – وأينما كان اتجاه النيل فقد كان الخط الذى يفصل بين الشرق والغرب .

وكان المصرى يطلق على النيل اسم (ايترو –عا) أى النهر العظيم وأما لفظة (النيل) فهى تصحيف لفظة (نيلوس) التى أطلقها اليونانيون على هذا النهر .

ومنذ عصر الأسرة الخامسة والعشرين كان المصرى على يقين من أن أمطار السودان لها دخل فى مياه النيل إلا أنه احتفظ بعقيدته القديمة التى تقول بأن النيل ينبع من كهف فى جزيرة « بيجه » .

أما النيل كإله فقد أطلق عليه المصرى القديم اسم (حعپى) ولم يكن

(جعبى) هذا هو النهر المقدس ، وإنما كان ذلك الإله أو الروح التى تكمن وراء هذا النهر العظيم والتى تدفع بمياه فيضه حاملة الخصب والنماء .

وصور المصرى هذا الإله فى هيئة بشرية تجمع بين الأنوثة والذكورة فى هيئة صياد السمك يلتحى باللحية التقليدية للإله ، له ثديًا امرأة وبطن مترهل ، ومن الغريب أن هذا الإله قد تبوّأ برغم ما أطلق عليه من صفات وألقاب منصب الخادم للآلهة .

فكان يصور على جدران المعابد فى صورته هذه يقدم خيراته إلى الآلهة الكبرى ، وكانت ترتل له الأناشيد فى المناسبات الخاصة – وفيها يُمجد وتُعدد أفضاله على مصر . ونقتطف هنا جانباً من تلك الأناشيد :

الحمد لله يا نيل ؛ يا من تخرج من الأرض وتأتى لتغذى مصر .

أنت النور الذى يأتى من الظلام .

عندما تفيض يقدمون لك القرابين وتذبح لك الماشية ويقام لك احتفال كبير .

– وأطلق المصرى كثيراً من الصفات على هذا الإله فقد كان رب الرزق العظيم ورب الأسماك وخالق الكائنات وواهب الحياة ووالد الأرباب وغير هذا من ألقاب التعظيم .

كما نظم المصرى الكثير من الأناشيد التى كانت ترتل فى الأعياد فيقول بعضها (هو الذى يذهب فى وقته ويأتى فى وقته الذى يحضر الأكل والمؤن هو الذى يأتى بين الأفراح ، المحبوب جداً ، رب الماء الذى يجلب الخضرة . يتفانى الناس فى خدمته ويحترمه الإله) .

– وقد كان لانتشار عقيدة (أوزوريس) وملحمته المشهورة أثر فى التوحيد

بين النيل كإله وبين (أوزوريس) وكان من بين ما أطلقوا على النيل من أسماء (ونن نفر) وهو من أسماء «أوزوريس» وأنشدوا له :

يا من يرى النيل فى فيضانه تدب الرعشة فى أوصاله . أما الحقول فتضحك وأما الشواطئ فتكسوها الخضرة وتتساقط هِبَاتُ هذا الإله وتعلو الفرحة وجوه البشر. أما قلوب الآلهة فتخفق من السعادة .

وقد وجد المصرى بين النيل وبين بعض الآلهة الأخرى التى كانت لها صلة بخصوبة الأرض أو المياه مثل (خنوم) الذى كان يطلق عليه «**رب المياه الطاهرة**. »

نبذة عن الديانة المصرية :

الدين ظاهرة اجتماعية ظهرت عند الإنسان الأول فى مرحلة بدائية تحت تأثير ارتباطه ببعض قوى الطبيعة ومظاهرها واضطراره إلى التقرب إليها مستهدفاً الاستزادة من النفع أو التقليل من الضرر ، ولم يكن هذا التقرب إلاَّ على أساس التَّعبد لها وتقديسها ، وتمثلت قوى الطبيعة فى الشمس والقمر والسماء والأرض والرياح وغير ذلك .

أما مظاهرها فقد كانت حسب بيئة المصرى القديم وتتمثل فى الحيوانات الضارية أو المستأنسة والطيور والأشجار والنباتات وهكذا تعددت المعبودات واختلفت فى كنهها .

وكان المصرى البدائى وحاله فى ذلك حال كل الشعوب البدائية يشعر بوجود هذه القوى ويُحِسُّ بتأثيراتها عليه – وهى تأثيرات بعضها ضار وبعضها

نافع ولكنه ما لبث عندما اختار بعض الحيوانات ليقدسها أن اعتقد أنها حوتْ شيئاً قويا وإلهيًّا فى نفسها . . .

بمعنى أن هذه القوى المجهولة الأصل قد اختارت هذا الحيوان لتتجسد فيه . إلا أن المصرى لم يقدس هذا الحيوان فى كل نماذجه بل اختار نموذجاً واحداً لهذا الغرض .

فمثلاً عبد المصرى البقرة (حاث حور) والتمساح (سوبك) والثعبان (واجيت) ولكنه لم يجد حرجا فى أن يذبح البقرة ليتغذى بلحمها وأن يقتل التمساح والثعبان دفاعاً عن النفس .

– وقد تكون عند المصرى القديم نوعان من الآلهة :

إله الكون وآلهة محلية : – وهذه الأخيرة لعبت عنده الدور الرئيسى ؛ ذلك لقربها منه ولتأثره المباشر بها . وأصبح لكل أسرة وكل قبيلة ولكل إقليم معبوداتها المحلية المتعددة ، واستمر الحال على هذا النحو حتى العصر الذى أصبح لمصر فيه كيان سياسى ، فاندمجت المناطق بعضها ببعض وانقسمت إلى قطرين ثم اتحدت البلاد تحت إمرة ملك واحد .

وهنا ظهر نوع ثالث من الآلهة معبود الدولة الذى كان فى الأصل أحد المعبودات المحلية ثم استطاع حاكم إقليمه أن يفرض سيادته على مصر بأكملها وحتم على المصريين أجمعين أن يقدسوا معبوده فيصبح بالتالى معبود الدولة بأكملها .

وكان لموقع مصر الحصين أثر كبير فى أن يشعر أهلُها بطمأنينة فى حياتهم ويعيشون فى هدوء كما أن بيئتهم السخية ونيلهم الفياض جعل الناس يتمتعون برغد العيش ولذلك أتت دياناتهم خلوا من الطقوس المخيفة من أجل المعبودات الظمأى للدماء ، والتى تفرض تضحيات بشرية لتسعد وترضى .

وهكذا تميزت ديانة المصريين بالطقوس الدينية التى تؤدى بشكل هادئ رزين ولاتسْرف فى السرور أو الملذات .

ونظراً لأن مصر استطاعت فى عصر مبكر من تاريخها أن تصل إلى وحدة سياسية تقوم على أسس قوية من النظم العلمية والقانونية والإدارية ، فقد أخذ المصرى القديم يحاول التعرف منذ أقدم العصور على أسرار العالم الذى يعيش فيه ويتساءل كيف خلقت الأرض وبدأت الحياة عليها ، وَمَاكُنْه السماء والكواكب التى تتحرك فوق صفحتها ؟

واستطاع بعد (أن يسْتلهم مظاهرَ بيئة وحيا) أن يتخيل الطريقة التى تمت بها عملية (خلق الخليقة) .

- لقد اعتقدوا أن العالم كان غارقاً فى خضم أزلى (نون) ، أخذت مياهه تنحسر رويداً ، رويداً ، كما تنحسر مياه الفيضان عن سطح الوادى ، حتى أتى اليوم الذى برز على صفحته (تل عال) ، وأصبح بمثابة البيئة اليابسة الصالحة لبدء الخليقة .

وهنا خلق الإله الأصل : (أتوم) فى مدرسة هليوبولس ، و (بتاح) فى منف ، و «الثامون» فى الأشمونين (وأمون) فى طيبة ، خلق نفسه من نفسه ، ثم أخذ يخلق الآلهة ومن بعدهم الخليقة .

وقد اختلفت المدارس السابقة فى طريقة الخلق إلا أنها جميعاً اتفقت على بدء الحياة فوق (التل العالى) .

وقد اعتبر المصريون ملكهم إلها ، ولذلك هيْمَن على كل شئون الحكم فكانت كلمته هى القانون وهى الوسيط الأوحد بين الناس وعالم الآلهة . (والكاهن الأعظم) لجميع المعبودات التى قدسها المصريون ولمَّا كان من

المستحيل على الملك أن يشرف ككاهن أعظم على الخدمة اليومية لكل معبود فى كل معبد – فقد اضطر أن ينيب عنه فى هذه المسئوليات بشراً عاديين يعملون بدلاً منه وباسمه ولَعَلَّ هذه هى الناحية الوحيدة التى أوضح فيها المصرى القديم الجانب البشرى فى ملوكهم وهو الجانب الذى ازداد وضوحاً فى عصر الفترة الأولى التى تفصل بين الدولتين القديمة والوسطى . وعندما أصاب التدهور الملكية ، وبالتالى ، أصبح لكل فرد الحق فى أن يتصل بمعبوده بطريقته الخاصة ، واستمر الحال فى الدولة الوسطى عندما أراد الفراعنة استعادة هيبتهم واسترجاع نفوذهم لا عن طريق القدسية المطلقة كأسلافهم من ملوك الدولة القديمة ، ولكن عن طريق القوة والبطش .

– فنجد مثلاً أن الكلمات التى امتدح بها (سنوهى) ملكه سنوسرت الأول هى (أنه سديد الرأى ، قوى العضلات ، يستخدم ذراعه ، إنه رجل عظيم الهمة ، وليس هناك من يدانيه) .

وهكذا نجد أن الملكية أخذت تعتمد اعتماداً كبيراً على الصفات البشرية التى يتحلى بها صاحب العرش . لكننا نجد أن السيطرة الدينية قد انتقلت إلى مجموعة الكهان الذين أصبحوا منذ عصر الدولة الحديثة قوة يخشى الملك بأسها .

– وشيد المصريون المعابد الضخمة لمعبوداتهم المختلفة وعهدوا بالخدمة فيها إلى عدد من الكهنة كانت مهمتهم رعاية معبوداتهم والقيام على خدمتهم بشعائر يومية مختلفة إذ اعتقد المصرى أن **الإله** هو السيد المهاب فى معبده وأن الكهنة هم الخدم الذين يقومون على خدمته .

ومن المعروف أن المصريين تخيلوا عالم معبوداتهم على الصورة التى كانت تجرى بينهم فتصوروهم كالبشر يأكلون ويشربون ويتزوجون وينجبون ويتصادقون

ويتخاصمون وعندئذ يتقدمون إلى محكمة إلهية تفصل فيما بينهم - ومن الواضح أن القرابين والترتيلات الدينية لا تحدث إلا بعد أن يطلب الكاهن من المعبود تجسد التمثال أو الحيوان الذى يرمز إليه والمحفوظ فى قدس الأقداس بمعنى أن العبادة كانت توجه إلى الإله وليس إلى تمثاله أو الحيوان الذى يرمز إليه .

أما عن عقيدة المصرى فى حياة الخلود بعد الموت فقد تأثرت هى الأخرى ببعض العوامل الطبيعية التى تميزت بها البيئة المصرية - وأعْنى بذلك التربة الصحراوية وانعدام الأمطار الموسمية فقد جعلا جثث الموتى المدفونة فيها تحتفظ بكثير من ملامحها نتيجة للجفاف المطلق فيها .

- ولاشك أن المصرى الأول دُهشَ لحالة الحفظ التى يجد عليها جثث آبائه وأجداده فاعتقد أن الموت ليس إلا صورة من صور الحياة يفقد فيها الإنسان مقومات الحركة وحدها ، واعتقد أيضاً أن الموت يصيب الجسم الخارجى فقط ، فى حين تبقى عناصر أخرى يحويها الجسم متمتعة بحياة وسعادة فى الآخرة وهذه العناصر هى :

أولاً - (البا) وقد اعتدنا بالتعبير عنها (بالروح) وصورها المصرى القديم على هيئة طائر له رأس إنسان يطابق ملامح وجه صاحبه ، وهى تنفصل عن الجسم عند الموت وتطير إلى السماء ولكنها تعود من حين لآخر إلى المقبره لزيارة صاحبها .

ثانياً - (الكا) ونعبر عنها بكلمة (القرين) وهى عبارة عن جسم معنوى أثيرى يسكن الجسم المادى ويشبهه فى كل شىء . ولكنه ينفصل عنه بمجرد الموت ، ويبقى مع الجسم فى المقبرة مادامت الجثة محنطة والقرابين تقدم على الموائد الحجرية فى المناسبات المتعددة .

ثالثاً – (**الآخ**) وهو الشخصية المعنوية لصاحبه وينفصل هو الآخر عن الجسم عند الموت ويصعد إلى السماء ويصبح نجماً يتلألأ على صفحتها فى الليل .

رابعاً – (**الايب**) أى القلب الذى اعتبره المصرى بمثابة الضمير فهو مركز الأحاسيس البشرية والموصى لصاحبه بالأعمال الخيرة منها والشريرة ، لذلك يصبح الشاهد الوحيد الذى يحدث رب الدنيا الثانية (أوزوريس) بأعمال صاحبه التى توزن فيحدد مصيره إما إلى الجنة (أيارو) وإما إلى العذاب .

– وارتبطت عقيدة المصرى بحياة الخلود بعد الموت بفكرة تزويد المقبرة بمجموعة كاملة من الأدوات والأثاث والمأكولات المادية – وقد اعتقد أيضاً أنه كلما أكثر من هذه المقتنيات ازدادت رفاهته وازداد تنعمه فى الدار الأخرى ، فوقف الأوقاف للإنفاق منها على تقديم القرابين المختلفة فى مقبرته وكان لزاماً على الابن الأكبر أن يقدم بنفسه هذه القرابين منادياً الأب : –

(قم خذ خبزك هذا منى) :

– وكانت عقيدة المصرى هى أن القرابين لن تصل إلى الميت إلا على أساس «خروج الصوت» والمناداة على الميت بمعنى أن صوت الإنسان الحى هو الذى يدعو (كا) الميت من المقبرة لتتلقى نصيبها من القرابين الطازجة فى المناسبات الدينية المختلفة .

وكان حظ الملوك من هذه المعتقدات يتفق مع مقامهم الكبير باعتبارهم آلهة –

● وتزخر «**متون الأهرام**» بنصوص تؤكد لنا مدى حرص المصرى على

مصير حياة الملك بعد الموت ، فهى تؤكد صحبته للإله الشمس فى روحاته وغدواته وأنه سيحيا حياة تشابه الإلهة العظيمة ، وعندما انتشرت عقيدة (أوزوريس) منذ الأسرة السادسة ربط المصريون بين حياة الملك فى دنيا الخلود ، وبين مصير (أوزوريس) كملك يتربع على عرش الدنيا الثانية ويحكم أهلها من الموتى .

ومن الصعب الإجابة على سؤال يحدد مكان عالم الخلود : هل كان فى السماء أو بمملكة (أوزوريس) فى الدنيا السفلى ، أو فى المقبرة نفسها ؟

ويبدو أن المقبرة كانت فى تخيل المصرى هى مكان الحياة الأخرى فى العصور الأولى من التاريخ المصرى — ثم تصور بعد ذلك أن هذا المكان يقع فى السماء وذلك عندما كانت عقيدة «رع» تهيمن على المجتمع المصرى .

ثم ما لبثت أن انتقلت الحياة الأخرى إلى «عالم أوزوريس» الذى يقع فى مكان ما فى أسفل الأرض وهو مكان يعتبر صورة طبق الأصل لمصر فيه نيل فياض . وشواطئ مزروعة ، وسماء تظللها ، وقد حدث ذلك عندما انتشرت «عبادة أوزوريس» فى أواخر الدولة القديمة .